دراسات

مشكلة الصحراء

من اين .. والى اين ؟

بقلم : علي بن عاشور

تشغل مشكلة الصحراء والساقية الحمراء بال الجماهير العربية وقد بدأت تطوراتها تثير القلق لديها منذ بدا وكان خطر الصدام بين الشعبين العربيين في المغرب وفي « الصحراء » أصبح وشيكا . ولقد زاد في تشابك الامور دعوة الملك الحسن الثاني لقيام « مسيرة » شعبية حشد لها ما يزيد عن خمسة اضعاف سكان « الصحراء » التي يطالب بضمها الى مملكته . فلماذا يطالب المغرب بالمنطقة، وما هي قصة « الصحراء » وما هو موقف القوى السياسية والثورية في الصحراء والساقية الحمراء ؟

الصفحات التالية تلقي اضواء على المشكلة وعلى اهم التطورات الاخيرة واحتمالات تصورها .

الصحراء « الاسبانية »، الصحراء « المغربية »، الصحراء « الموريتانية » ، الصحراء « الغربية » ،

ثلاثة جنود اسبانيين في الصحراء المغربية

واخيرا الصحراء « الصحراوية » ، كل هذه الاصطلاحات تطلق على رقعة الارض الصحراوية الواقعة على المحيط الاطلسي والمتاخمة لحدود كل من المغرب ، موريتانيا والجزائر ، والتي تسمى ايضا: الساقية الحمراء ووادي الذهب (ريو دورو) . تصل مساحتها الى ٢٢٦ الف كيلومتر مربع ، وسكانها ، حسب اكبر تقدير ، حيث لم يجر أي احصاء رسمي في تاريخها لا يتعدون ٨٠ الف نسمة ، بما فيهم الـ ٢٠ الف لاجيء الموزعين على الاقطار المجاورة . وما زال ما لا يقل عن نصف سكان الصحراء بدوا رحلا يلاحقون سراب الصحراء بحثا عن لقمة العيش ، ولوقت قريب لم تكن تحد رحلاتهم أية حدود .

تختزن الصحراء اكبر جزء من احتياطي العالم من مادة الفوسفات والبالغ ٩٠ بالمائة منه ، اضافة للكميات الهائلة ، غير المقدرة ، من البترول والحديد. هذا بينما يعيش السكان شبه جائعين تلتهمهم الامراض والامية ، التي تكاد تكون متفشية بنسبة ١٠٠٪ ، اللهم الا بنسبة لبعض أبناء المشايخ والمتعاونين في قرى ـ وليس مدن ـ الصحراء مع السلطات الاستعمارية ـ الاسبانية ، الذين تمكنوا من اكتساب بعض « المعرفة » لقمع بقية السكان ولمساعدة ادارة الاحتلال في تسيير أمورها المختلفة .

شاهدت الصحراء اولى طلائع الاستعمار ، في القرن السادس عشر ، حين كانت بعض السفن البرتغالية والهولندية ترسو على شواطيء الصحراء ، لتكمل فيما بعد رحلاتها حول القارة الافريقية . وتطورت استراحة السفن الى شبه غزوات عسكرية امتدت عبر القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان سكان الصحراء يبدون مقاومة عنيفة لهؤلاء القادمين « الغرباء » ، محتمين في ذلك بالعمق الصحراوي الشاسع ، الذي واجهوا به اسبانيا ، التي بسطت نفوذها على منطقة الصحراء عام ١٨٨٤ . ساهم سكان الصحراء في صد العدوان الاسباني الفرنسي على المغرب وفي الكفاح المسلح الذي خاضه الشعب المغربي ضد الاستعمار الفرنسي من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٣٦ ، وكذلك في معركة التحرير الوطني المغربي .

بعد الاستقلال الشكلي الذي حصل عليه المغرب، وبقاء الاحتلال الاسباني في بعض المدن المغربية والصحراء ، خاض سكان الصحراء وفي اطار جيش التحرير المغربي ، بالجنوب ، معارك واسعة من اجل طرد المستعمر . ومن المهم هنا ، ان نذكر أن اهم وآخر المعارك الوطنية التي خاضها السكان الصحراويون في اطار معارك الشعب المغربي هي تلك التي كانت ضد الجيشين الفرنسي والاسباني على السواء ، خلال عام ١٩٥٨ ، في الرغيوة ، تكل ، العرقوب ، اوسرد ، النشيرة ...

لكن مؤامرات الحكم الرجعي ، التي استهدفت تصفية جيش التحرير المغربي بالجنوب ، في اطار مخططه للانفراد بالسلطة في السنوات الاولى من الاستقلال من جهة واكتشاف ثروات هائلة من المعادن ـ الفوسفات ، البترول ـ جعل الاستعمار الاسباني يشدد من قبضته على المنطقة نهائيا . فقد تغير الموقف الاسباني السابق ، منذ ١٩٦٣ ، كليّة ، فبدل الاعتراف بمغربية الصحراء والاستعداد للتنازل عليها مقابل اعتراف الحكم المغربي « بأسبنة » سبتة ومليلة ، انقلب جذريا بعد اكتشاف الثروات المعدنية، وما تشكله من دم قوي جديد لاستعمار كالاستعمار الاسباني المتخلف اقتصاديا واجتماعيا لحل مشاكله الداخلية المزمنة . لذلك فالصحراء تشكل بالنسبة لاسبانيا مدخرا اقتصاديا وماليا ومشغلا لليد العاملة الاسبانية ، المتراكمة في الشوارع ، مشكلة جيشا عرمرما من البطالة .

لضمان هذا الوضع وتخليده لفترة طويلة من الزمن ، ونتيجة ضعفها الاقتصادي والتكنولوجي العسكري ، حرصت اسبانيا على توفير اجماع امبريالي حول المصالح داخل المنطقة عبر المساهمة الكثيفة لرؤوس الاموال الامبريالية : الاوروبية الغربية والامريكية ، لاستغلال المنطقة ، وعبر التاكيد على أن استمرار الوجود الاسباني في الصحراء سيشكل استراتيجيا ضمانة حقيقية وفعلية لحماية مجمل المصالح الامبريالية في عموم المغرب العربي ، وعبرها يمكن ضرب اي تحرك جماهيري ثوري مجاور في المنطقة . تطبيقا لهذه الاستراتيجية ، واعتمادا على قلة الكثافة السكانية في الصحراء ، حاولت اسبانيا تطبيق مشروع استيطاني فيها بتكثيف الهجرة الاسبانية اليها وطرد السكان الاصليين عن طريق تضييق الخناق على وضعهم المعيشي ومنعهم من العمل في أماكن الانتاج ، مما يجبرهم على الهجرة الى البلدان المجاورة .

لقد كان هذا هو مشروع الالحاق الاسباني : تذويب الهوية العربية للصحراء وضمها لاسبانيا نهائيا . فما الذي جعل اسبانيا لا تتردد ، في كل مرة تطرح فيها مشكلة الصحراء على التاكيد على « حق السكان في تقرير مصيرهم » واستعدادها للاستجابة لـ « رغبة السكان في الاستقلال السياسي والوطني » ؟ . لقد رات ، بعد فشل مشروعها الاستيطاني ، نتيجة مقاومة الصحراويين ، ان خير حل للمشكلة هو خلق كيان صحراوي مستقل شكليا وتابع لها سياسيا واقتصاديا ، يضمن مصالحها ومصالح الامبريالية ، التي ترغب دائما في ضمان أقصى درجة ممكنة من الربح لاحتكاراتها الاستغلالية على حساب الشعوب . ومن هذا المنطق شكل أعوان اسبانيا الصحراويون : حزب الاتحاد الوطني الصحراوي الذي تعترف به اسبانيا حزبا وحيدا وممثلا « شرعيا » لسكان الصحراء . وهي تراهن عليه حتى اليوم .

داب النظام الملكي في المغرب على طرح مشكلة « الارض » في كل مرة تشتد فيها ازماته الداخلية وتتصاعد فيه كفاحية الجماهير المسحوقة المغربية .

ففي عام ١٩٦٣ ، عندما فشلت الحكومة البرلمانية التي شاركت فيها احزاب المعارضة : وبهذا ان القوى الوطنية تسيطر اكثر فاكثر على الشارع المغربي في حين ازداد التفاف الجماهير حول برامجها التي ، وان لم تكن جذرية بل اصلاحية ، كانت اكثر تقدما بعشرات الاميال من برامج القصر ،خصوصا فيما يتعلق ببرنامج الاصلاح الزراعي . فقد حل الملك البرلمان وطرد الحكومة بينما ساد الفمع والمحاكمات والاعدام ، فازداد سخط الجماهير ـ التي كانت تجرى امام عيونها وبجوارها التجربة الجديدة التي هب عمال الجزائر الصناعيون والزراعيون لتدشنها صبيحة استقلالهم ـ مما وضع الحكم الملكي في عزلة قاتلة ، فلم يجد منقذا الا التحرك لاثارة قضية « الارض » مع الجزائر . وبدعم من الامبريالية شن عدوانه على الجزائر ، التي كانشعبها يضمد الجراح ، في تشرين الاول عام ١٩٦٣ . والحقيقة ان العدوان لم يكن هدفه الارض واسترجاع منطقة تندوف « المغربية » ، بل كان تحقيق « الاجماع الوطني » بابعاد الجماهير عن مشاكلها الحقيقية وتوجه انظارها الى « الخطر الخارجي » . فقد وصف في حينها كل مغربي ادان العدوان بـ « الخيانة الوطنية » ووصلت الامور الى حد اصدار احكام الاعدام بحق العديد من المناضلين المغاربة .

وهكذا طرح الحكم الملكي ايضا مشكلة الصحراء على فترات ، وحسب الاوضاع الداخلية ، خاصة وان قضية انهاء الوجود الاستعماري على اجزاء من الاراضي المغربية كانت تطرح دائما ضمن المطالب الشعبية . وتجدر الاشارة الى ان الحكم لم يطرح قضية استرجاع الصحراء بكاملها قبل حملته الاخيرة .

قبل اكثر من ثلاث سنوات ، وبعد الاعتراف الرسمي بالكيان الموريتاني (اذ كان المغرب قبل ذلك التاريخ يعتبر موريتانيا جزءا لا يتجزأ من المغرب) عقد مؤتمر نواديبو بين البلدان الثلاث (المغرب ـ موريتانيا ـ الجزائر) او مؤتمر « الدول المعنية بالصحراء » ، والذي بحث في المسائل المشتركة . وبعد ذلك بوقت قصير عقد اتفاق منطقة تندوف بين المغرب والجزائر « الذي تم فيه الاتفاق حول كيفية اسفلال المناطق المتنازع عليها . الا انه لم يكتب للاتفاق النجاح الكامل فاتجه الملك الحسن الثاني من اجل تقوية جبهته ، الى اللقاء بمختار ولد دادة ، حيث اتفق البلدان ، بعد محادثات سرية على المطالبة بالصحراء .وتقسيمها بعد استرجاعها .

تاسيس الجبهة الشعبية وبدء الكفاح المسلح .

في السنوات الاخيرة ، ونظرا الى ان كل ما يجري ، كان يجري من خلف ظهر السكان العرب في الصحراء ، ونتيجة عجز الحركة الوطنية والثورية المغربية وتعثر كفاحها ضد الاستعمار وتخلفها بالتالي عن المساهمة الفعلية في نضالات سكان الصحراء ، ولدور الاستعمار والرجعية ، نمت النزعة الاقليمية القبلية داخل سكان الصحراء ... حيث بدأوا يشعرون انهم يكونون شعبا مستقلا عن بقية شعوب الامة العربية في المنطقة . فعلى غرار تكون بعض المجموعات السياسية ـ (اذ اختلفت في اتجاهاتها

طلائع « المسيرة الخضراء » التي بلغ عدد المشتركين فيها حتى الان ٢٠ الفا اثناء تجمعها في مدينة اغادير

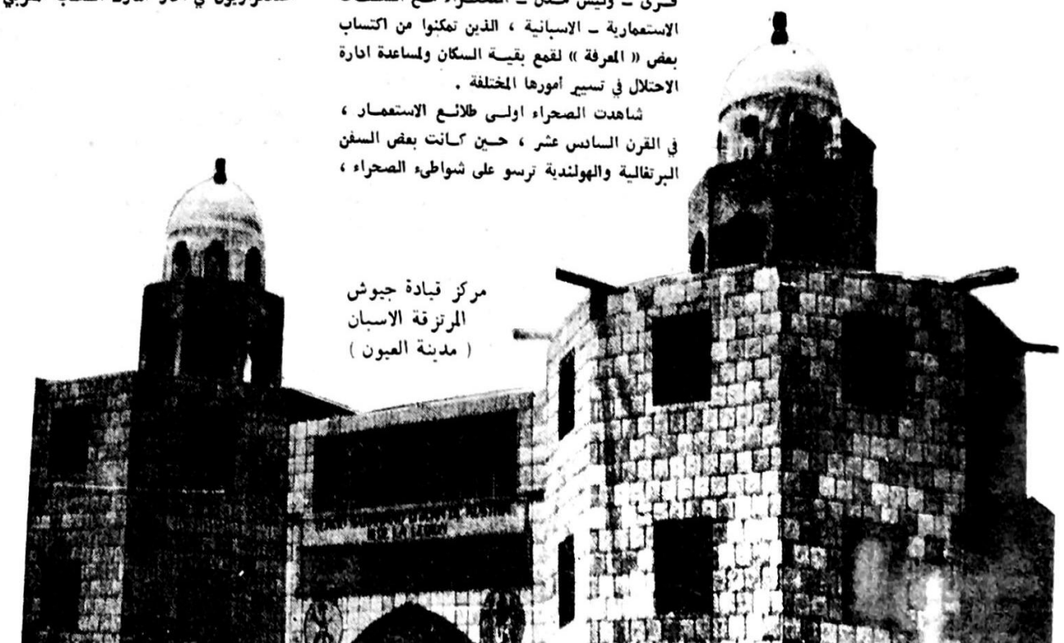

مركز قيادة جيوش المرتزقة الاسبان (مدينة العيون)